الفصل الثانى

مقالات المؤلفين الإسلاميين

ذكرنا فى الفصل السابق قول العلماء الغربيين من المستشرقين ومؤرخى الفلسفة فى الفلسفة الإسلامية ، وتتبعنا نظرهم إليها وحكمهم عليها منذ تأسيس تاريخ الفلسفة بالمعنى الحديث إلى أيامنا هذه .

ونريد فى هذا الفصل : أن نتناول آراء المؤلفين الشرقيين من أهل البلاد الإسلامية الذين كتبوا مؤلفاتهم بالعربية غالبا .

وسنحاول أن نتبين وجهة نظرهم إلى الفلسفة الإسلامية ومقالاتهم فى أصولها وحكمهم على منزلتها .

وقد يكون من العسير أن نسلك فى هذا البحث نفس النسق الذى سلكناه فى الفصل الأول ، خصوصاً فيما يتعلق بمراعاة الترتيب التاريخى فى سرد الآراء وملاحظة تطورها ، على أنا سنبذل جهدنا فى التقريب بين مناهج البحثين .

الفلسفة والأمة العربية :

يقول القاضى أبو القاسم (صاعد بن أحمد) المتوفى سنة ٤٦٢ هـ (١٠٧٠ م) فى كتابه « طبقات الأمم » بعد ذكر علم العرب فى جاهليتهم :

« وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله عز شيئاً منه ، ولا هيأ طباعهم للعناية به ؛ ولا أعلم أحداً من صميم العرب شهر به إلا أبا يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى[1]

---

(١) المتوفى نحو سنة ٢٦٠ هـ (٨٧٣م) على ما ذكره (نللينو) فى محاضراته فى تاريخ الفلك عند العرب ، والراجح أنه توفى فى أواخر سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) كما حققناه فى البحث المنشور فى «مجلة كلية الآداب» بعنوان : « أبو يوسف يعقوب الكندى » ، سنة ١٩٣٣ .

وأبا محمد[١] الحسن الهمدانى »[٢] .

وكلام صاعد نص فى أن العرب لم يكن عندهم شىء من علم الفلسفة ، وفى أن طبعهم خلو من التهيؤ لهذا العلم إلا شذوذاً .

لكن الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) يقول فى كتابه « الملل والنحل » عند الكلام على الفلاسفة فى الأمم المختلفة :

« ومنهم حكماء العرب ، وهم شرذمة قليلة لأن أكثرهم حكمهم فلتات الطبع وخطرات الفكر ، وربما قالوا بالنبوات »[٣] .

فالشهرستانى يرى أن العرب قبل الإسلام كان عندهم حكماء ، هم شرذمة قليلة ، وكان عندهم حكمة أكثرها فلتات الطبع وخطرات الفكر . ولا شك أن العرب فى جاهليتهم كانوا يعرفون كلمة (حكمة) وكلمة حكماء .

ولم يبين صاحب كتاب « الملل والنحل » فى هذا القول سبب قلة الحكماء عند العرب ، ولم يَرُدّ ذلك إلى طبيعتهم على نحو ما صنع القاضى أبو القاسم صاعد ، بل هو لم يردّ ذلك إلى طبيعة العرب عندما ذكر آراء الناس فى تقسيم أهل العالم فقال :

« من الناس من قسم أهل العالم بحسب الأقاليم السبعة ، وأعطى أهل كل إقليم حظه من اختلاف الطبائع والأنفس التى تدل عليها الألوان والألسن ؛ ومنهم من قسمهم بحسب الأقطار الأربعة التى هى الشرق والغرب والجنوب والشمال ، ووفر على كل قطر حقه من اختلاف الطبائع وتباين الشرائع . ومنهم من قسمهم بحسب الأمم ، فقال : كبار الأمم أربعة : العرب ، والعجم ، والروم ، والهند ، ثم زاوج بين أمة وأمة ، فذكر أن العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد ، وأكثر ميلهم إلى تقرير خواص الأشياء ، والحكم بأحكام الماهيات والحقائق ، واستعمال الأمور الروحانية ؛ والروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد ، وأكثر ميلهم إلى تقرير

---

(١) المتوفى بسجن صنعاء سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) كما فى « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » للقفطى . (٢) ص ٤٥ . طبعة بيروت .

(٣) ص ٢٥٣ ، من طبعة ليپتسك سنة ١٩٢٣ م .

طبائع الأشياء ، والحكم بأحكام الكيفيات والكميات واستعمال الأمور الجسمانية »[١] .

ولم يردّ الشهرستانى ذلك إلى طبيعة العرب عند الكلام على آراء العرب فى الجاهلية[٢] ، وسيأتى ذكر هذا النص فى كلام الأستاذ أحمد أمين بك .

على أن الأستاذ أحمد أمين بك يرى رأياً آخر فى كلام الشهرستانى ، فهو يقول فى كتابه « فجر الإسلام » ما نصه :

« لاحظ بعض المستشرقين أن طبيعة العقل العربى لا تنظر إلى الأشياء نظرة عامة شاملة ، وليس فى استطاعتها ذلك ، وقبله لاحظ هذا المعنى بعض المؤلفين الأقدمين من المسلمين ، فقد جاء فى « الملل والنحل » للشهرستانى عند الكلام على الحكماء :

« الصنف الثانى حكماء العرب وهم شرذمة قليلة ، وأكثر حكمهم فلتات الطبع وخطرات الفكر » .

« إن العرب والهند يتقاربان على مذهب واحد . . . والمقارنة بين الأمتين مقصورة على اعتبار خواص الأشياء والحكم بأحكام الماهيات ، والغالب عليهم الفطرة والطبع ؛ وإن الروم والعجم يتقاربان على مذهب واحد حيث كانت المقاربة مقصورة على اعتبار كيفية الأشياء والحكم بأحكام الطبائع ، والغالب عليهم الاجتهاد والجهد »[٣] .

ولست أرى أن كلام الشهرستانى بسبب من عجز العقل العربى عن النظر إلى الأشياء نظرة شاملة ؛ بل قد يكون على عكس ذلك .

فإن الذى يفهم من نصوص الشهرستانى هو أن العرب والهند يميلون إلى الأحكام الكلية والأمور العقلية والمجردات ، وهم ينزعون إلى الروحانيات ، بخلاف الروم والفرس الميالين إلى الأمور الجزئية ، وإلى تتبع آثار الطبائع والأمزجة وما يقع عليه

---

(١) ص ٣ . (٢) ص ٤٢٩ .

(٣) « فجر الإسلام » — الجزء الأول — الطبعة الأولى — ص ٤٩ .

الحس من الأجسام والجسمانيات . ولعل قول الشهرستانى : « إن أكثر حكم العرب فلتات الطبع وخطرات الفكر » ، وقوله : « والغالب عليهم الفطرة والطبع » ، كل ذلك لا يخرج عما يقوله الجاحظ فى كتاب « البيان والتبيين » : « إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكر ودراسة الكتب ، وحكاية الثانى علمَ الأول ، وزيادة الثالث فى علم الثانى ، حتى اجتمت ثمار تلك الفكر عند آخرهم ، وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام »(١) .

ولا يريد الجاحظ بمقاله إلا أن يصف العرب بسرعة الذكاء وحدة الذهن وإصابة الرأى فيما يحتاج غيرهم فيه إلى أناة وطول تفكير واستعانة وبحث .

هذا ويوشك أن يكون التخالف بين مقال صاعد ومقال الشهرستانى فى أمر الفلسفة عند العرب يرجع إلى عدم اتفاقهما على المراد بالفلسفة التى يتكلمان عنها . فصاعد يريد بالفلسفة النظر العقلى الموجه إلى تعرف الحقائق على أسلوب علمى ، وهو يذكر ما يذكره من علوم العرب كعلم لسانها ، وعلم الأخبار ، ومعرفة السير والأمصار ، ثم يذكر معرفتهم لمطالع النجوم ومغاربها ، وأنواء الكواكب وأمطارها ، فيقول :

« على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة ، لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدرب فى العلوم »(٢) .

فلم يكن عند العرب علم على طريق تعلم الحقائق والتدرب فى العلوم مطلقاً ، لا ما يسمى بالفلسفة ولا غيره .

أما الشهرستانى فالظاهر أن الفلاسفة عنده يقابلون أهل الديانات والنحل . وهو يقول :

« فالمستبدون بالرأى مطلقاً هم المنكرون للنبوات مثل الفلاسفة والصابئة

---

(١) ج ٣ ص ١٢ — ١٣ . طبعة مصر ١٣٣٢ . (٢) ص ٤٥ .

والبراهمة ، وهم لا يقولون بشرائع وأحكام أمرية ، بل يضعون حدوداً عقلية حتى يمكنهم التعايش عليها . . . والمستفيدون هم القائلون بالنبوات »[١] .

وقد كان عند العرب من غير الصابئة والبراهمة من يضعون لهم حدوداً عقلية تكفل شيئاً من النظام والعدل لعيشتهم هم حكامُهم وحكامهم .

وهذا التفكير العقلي وما إليه يسمى فلسفة عند الشهرستاني ، ما دام غير معتمد على أساس من الدين وإن لم يكن على المنهج العلمي .

وصاعد مع قوله بأن العرب لم يمنحهم الله شيئاً من علم الفلسفة ولا هيّأ طباعهم للعناية به ، فإنه لم يبين لنا ما هي تلك الطبيعة العربية التي تنبو عن الفلسفة .

أما الشهرستاني فقد ميز الطبيعة العربية تميزاً يجعلها قريبة من النظر المجرد والمباحث الكلية التي هي بالفلسفة أشبه . ثم ذكر أن حكماء العرب قليلون وأكثر حكمهم بديهة وارتجال ، ولم يبين وجهاً لقلة حكمائهم مع توفر استعدادهم الطبيعي .

وجاء بعد ذلك عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٦ م) فذهب في بيان معنى الفلسفة مذهباً غير بعيد من رأي الشهرستاني ، فهو يقول في المقدمة :

« اعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلا وتعليما على صنفين :

(١) صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره ؛

(٢) وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه .

والأول هو العلوم الحكمية الفلسفية ، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها ، حتى يقفه نظرُه وبحثُه على الصواب من الخطأ فيها من حيث هو إنسان ذو فكر .

والثاني العلوم النقلية الوضعية ، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي ،

---

(١) ص ٢٥ .

ولا مجال للعقل فيها إلا فى إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول »[1] .

ويظهر أن هذا الفيلسوف الاجتماعى لا يرى رأى القائلين بأن فى طبيعة العرب ما يصدهم عن الفلسفة ويضعف استعدادهم لها ، إذ هو لا يقسم البشر أجناساً لكل جنس طبيعة لازمة ، على نحو ما يميل إليه صاعد والشهرستانى فيما يؤخذ من كلامهما ، بل هو يردّ صفات الشعوب الحسية والمعنوية إلى عوامل طارئة من الهواء واختلاف أحوال العمران . فهو يبين فى « مقدمته » أثر الموقع الجغرافى وتأثير الهواء فى ألوان البشر والكثير من أحوالهم ، ويذكر اختلاف أحوال العمران فى الخصب والجدب ، وما ينشأ عن ذلك من الآثار فى أبدان البشر وأخلاقهم .

وقد عقد فى المقدمة فصلا للكلام على أن حَمَلة العلم فى الإسلام أكثرهم العجم ، حلل فيه الأسباب التى يرى أنها صرفت العرب عن العناية بالعلم والفلسفة فى جاهليتهم وإسلامهم ، وهى أسباب خارجة عن طبيعتهم الجنسية . قال فى هذا الفصل :

« من الغريب الواقع أن حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية ، إلا فى القليل النادر ؛ وإن كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته ، مع أن الملة عربية وصاحب شريعتها عربى . والسبب فى ذلك أن الملة فى أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة ... والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين » .

وبعد أن ذكر نشأة العلوم الشرعية وغيرها قال :

« فصارت هذه العلوم كلها علوماً ذات ملكات محتاجة إلى التعليم ، فاندرجت فى جملة الصنائع . وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر وأن العرب أبعد الناس عنها ، فصارت العلوم لذلك حضرية وبعد عنها العرب . . . وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة ، فشغلتهم الرئاسة فى الدولة العباسية وما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه ، فإنهم أهل الدولة وأولو سياستها . . . مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ

(١) ص ٤١١ — ١٢ ، طبعة بولاق ، ١٣٢٠ هـ .

بما صار من جملة الصنائع ؛ والرؤساء أبداً يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجر إليها . وأما العلوم العقلية أيضاً فلم تظهر فى الملة إلا بعد أن تميز حملة العلم ومؤلفوه ، واستقر العلم كله صناعة ، فاختصت بالعجم وتركها العرب وانصرفوا عن انتحالها ، فلم يحملها إلا المعلمون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولا »[1] .

فابن خلدون لا يرى أن انصراف العرب عن الفلسفة إلا قليلا كان لقصور فى طبيعتهم ، ولكنه كان بحكم البداوة البعيدة عن ممارسة الصناعات العلمية وغيرها ، ثم بحكم اشتغالهم بالرياسة وتدبير الدولة والدفاع عنها ، واستنكافهم عن معالجة الصناعات حتى العلمية منها التى تركوها للمرءوسين من الأعاجم .

وعرض تقى الدين أحمد بن على المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) فى « الخطط » لفلاسفة العرب فى الجاهلية فجعلهم دون غيرهم من فلاسفة الأمم ، وجعل فلاسفة الإسلام فى نسق مع حكماء الروم حتى لكأنهم طبقة منهم ؛ قال :

« واسم الفلاسفة يطلق على جماعة من الهند هم الطبسيون[2] والبراهمة ، ولهم رياضة شديدة ، وهم ينكرون النبوة أصلا ، ويطلق أيضاً على العرب بوجه أنقص ، وحكمتهم ترجع إلى أفكارهم وإلى ملاحظة طبيعية ، ويقرّون بالنبوات ، وهم أضعف الناس فى العلوم ؛ ومن الفلاسفة حكماء الروم وهم طبقات ، فمنهم أساطين الحكمة وهم أقدمهم ، ومنهم المشاؤون ، وأصحاب الرواق ، وأصحاب أرسطو ، وفلاسفة الإسلام »[3] .

مصادر الفلسفة فى الملة الإسلامية :

لم يكن للعرب فى جاهليتهم حظ من الفلسفة من حيث هى علم له موضوعه وأسلوبه فى البحث وغايته .

---

(١) ص ٥٤٠ — ٥٤٢ .

(٢) فى لسان العرب : والطبسان كورتان بخراسان . وبهامشه نقلا عن ياقوت أنهما كورتان إحداهما يقال لها طبس التمر والأخرى يقال لها طبس العناب . والفرس لا يتكلمون بهما إلا مفردين . (٣) ج ٤ ص ١٦٣ .

لكن هذا العلم كان موجوداً عند أمم من غير العرب ، وانتقل منها إلى العرب في ريعان دولتهم الناهضة .

الاعتراف بسلطان الفلسفة اليونانية :

قال ابن خلدون في المقدمة :

« واعلم أن أكثر من عني بها (يعني العلوم العقلية) في الأجيال الذين عرفنا أخبارهم الأمتان العظيمتان في الدولة قبل الإسلام ، وهما : فارس[١] والروم »[٢] .

وجاء في كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء »[٣] في ترجمة الكندي :

« يعقوب بن إسحاق . . . أبو يوسف الكندي المشتهر في الملة الإسلامية بالتبحر في فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية »[٤] .

وقد ذكر صاحب[٥] كتاب « الفهرست » أسماء[٦] من نقلوا إلى العربية كتب العلوم الفلسفية في عهد العباسيين عن اليونانية والفارسية والهندية .

وفي ذلك اعتراف بقيام العلوم الفلسفية في الإسلام على أصول يونانية وفارسية وهندية ، لكن ابن خلدون يقول في المقدمة :

« وأما الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيما . . . ولما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتباً كثيرة ، كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب ليستأذن في شأنها وتلقينها للمسلمين ، فكتب إليه عمر أن اطرحوها في

---

(١) يطلق لفظ الروم عند العرب على سكان الإمبراطورية الرومانية الشرقية أحياناً ، ويطلق في الغالب على اليونان

(٢) ص ٤٥٣ .

(٣) الكتاب المطبوع في مصر بعنوان كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » المنسوب للوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) ليس هو في الواقع كتاب ابن القفطي ، ولكنه مختصر وضعه محمد بن علي الخطيبي الزوزني ولا يعرف إلا اسمه ، وتاريخ فراغه من مختصره سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) .

(٤) ص ٢٤٠

(٥) أبو الفرج محمد بن إسحاق بن يعقوب النديم ، ورد في بعض التعاليق المكتوبة بظهر نسخة خطية بمدينة ليدن من أعمال هولندة أنه توفي سنة ٣٨٥ هـ (٩٩٥ م) ، وصنف كتابه « الفهرست » سنة ٣٧٧ هـ (٩٧٨ م)

(٦) ص ٢٤٤ — ٤٥ .

obeikandi.com

الماء ، فإن يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله بأهدى منه ، وإن يكن ضلالا فقد كفانا الله . فطرحوها فى الماء أو فى النار ، وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل إلينا »[١] .

ومهما يكن من أمر هذه الرواية ، فإنها لا تثبت أن آثار الفرس محيت كلها ؛ غير أنها قد تدل على أن ما وصل إلى العرب من مؤلفات الفرس هو دون ما وصل إليهم من مؤلفات اليونان مثلا .

واعتراف مؤلفى العربية بأن علوم الفلسفة دخيلة عليهم ، ظاهر فى شيوع وصفها فى كتبهم بأنها من علوم الأوائل والعلوم القديمة ، فى مقابلة العلوم المحدثة فى الملة الإسلامية . وقد جاء هذا التعبير فى كتاب « الفهرست » لابن النديم ، وكتاب « طبقات الأمم » لأبى القاسم صاعد ، و « كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء » ، وغيرها .

« واسم الفلسفة — كما نقله عن الفارابى صاحب[٢] « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » — يونانى ، وهو دخيل فى العربية ، وهو على مذهب لسانهم فيلاسوفيا ، ومعناه إيثار الحكمة ، وهو فى لسانهم مركب من فيلا وسوفيا ، ففيلا « الإيثار » وسوفيا « الحكمة » . والفيلسوف مشتق من الفلسفة ، وهو على مذهب لسانهم فيلوسوفوس ، فإن هذا التغيير هو تغيير كثير من الاشتقاقات عندهم ومعناه « المؤثر للحكمة » ، والمؤثر للحكمة عندهم هو الذى يجعل الوكد من حياته وغرضه من عمره الحكمة[٣] » .

واستعمال العرب للفظ « الفلسفة » اليونانى إشعار بأن مصدر الفلسفة عندهم يونانى ، بل إن مؤلفى العرب يرون أن الأصل فى الفلسفة والمبدأ فى الحكمة للروم . قال صاحب كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » :

---

(١) ص ٤٥٤ .

(٢) هو موفق الدين أبو العباس حمد بن القاسم المعروف بابن أبى أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٧٠ م) (٣) ج ٢ ص ١٣٤ .

« وبسبب أرسطوطاليس كثرت الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة فى البلاد الإسلامية »[١] .

وقال صاحب كتاب « الملل والنحل » :

« فنحن نذكر مذاهب الحكماء القدماء من الروم واليونانيين فى الترتيب الذى نُقِل فى كتبهم ، ونُعْقِب ذلك بذكر سائر الحكماء ؛ فإن الأصل فى الفلسفة والمبدأ فى الحكمة للروم ، وغيرهم كالعيال عليهم »[٢] .

وفى كتاب « أبجد العلوم » لحسن صديق خان :

« وجميع العلوم العقلية مأخوذة عن أهل يونان »[٣] .

والرأى السائد عند المؤلفين الإسلاميين هو أن الفلسفة الإسلامية ليست إلا مقالات أرسطوطاليس مع بعض آراء أفلاطُن والمتقدمين من فلاسفة اليونان قبل أفلاطن . وهذا ما يقوله الشهرستانى فى « الملل والنحل » عند الكلام على المتأخرين من فلاسفة الإسلام :

« قد سلكوا كلهم طريقة أرسطوطاليس فى جميع ما ذهب إليه وانفرد به ، سوى كلمات يسيرة ربما رأوا فيها رأى أفلاطن والمتقدمين »[٤] .

وابن خلدون يقول تارة فى المقدمة فى : « فصل فى إبطال الفلسفة وفساد منتحلها » كقول الشهرستانى :

« وإمام هذه المذاهب الذى حصّل مسائلها ، ودوّن علمها ، وسطر حجاجها فيما بلغنا فى هذه الأحقاب ، هو أرسطو المقدونى من أهل مقدونية من بلاد الروم . . . ويسمونه المعلم الأول على الإطلاق ، يعنون معلم صناعة المنطق إذ لم تكن قبله مهذبة . وهو أول من رتب قانونها ، واستوفى مسائلها ، وأحسنَ بسطها . . . ثم كان من بعده فى الإسلام من أخذ بتلك المذاهب ، واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل إلا فى القليل »[٥] .

---

(١) ص ٢٢ (٢) ص ٢٥٣ (٣) ج ١ ص ١٠٦ .
(٤) ص ٣٤٨ (٥) ص ٥١٤

ويرى تارة رأيا آخر فيقول فى فصل : « العلوم العقلية وأصنافها » بعد ذكر عصر المأمون وما كان فيه من العناية باستخراج كتب اليونانيين وترجمتها :

« وعكف عليها النظار من أهل الإسلام وحذقوا فى فنونها ، وانتهت إلى الغاية أنظارهم فيها ، وخالفوا كثيراً من آراء المعلم الأول ، واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده . ودوّنوا فى ذلك الدواوين ، وأربوا على من تقدمهم فى هذه العلوم »[1] .

ومن فلاسفة الإسلام أنفسهم من لا يرى فى الفلسفة الإسلامية فى جملتها أفضل من هذه الآراء .

وقد نقل ماسينيون فى كتابه « مجموع نصوص لم تنشر متعلقة بتاريخ التصوف فى بلاد الإسلام » ، جملة من كتاب لابن سبعين الفيلسوف الأندلسى المتوفى سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) ، صور فيها ابن رشد والفارابى وابن سينا تصويراً يشف عن رأيه فى فلسفتهم ، وهم أئمة الفلسفة الإسلامية . قال فى ابن رشد :

« وهذا الرجل مفتون بأرسطو ومُعَظِّم له ، ويكاد أن يقلده فى الحس والمعقولات الأولى ، ولو سمع الحكيم يقول : إن القائم قاعد فى زمان واحد ، لقال هو به واعتقده . وأكثر تآليفه من كلام أرسطو : إما يلخصها ، وإما يمشى معها » .

وقال فى الفارابى :

« وهذا الرجل أفهم فلاسفة الإسلام وأذكرهم للعلوم القديمة ، وهو الفيلسوف فيها لا غير ؛ وهو مدرك محقّق » .

أما ابن سينا عنده :

« فمموّه مسفسط ، كثير الطنطنة ، قليل الفائدة ؛ وما له من التآليف لا يصلح لشىء . ويزعم أنه أدرك الفلسفة المشرقية ، ولو أدركها لتضوّع ريحها عليه ؛ وهو فى العين الحَمِئة . وأكثر كتبه مؤلفة ومستنبطة من كتب أفلاطون ؛ وما فيها من عنده فشىء لا يصلح ؛ وكلامه لا يعول عليه . و« الشفاء » أجلّ كتبه . وهو

(١) ص ٤٥٥ .

كثير التخبط ومخالف للحكيم وإن كان خلافه له مما يشكر له ، فإنه بيّن ما كتبه الحكيم . وأحسنُ ما له في الإلٰهيات « التنبيهات والإشارات » ، وما رمزه في حي ابن يقظان ؛ على أن جميع ما ذكره فيها هو من مفهوم « النواميس » لأفلاطون وكلام الصوفية » .

والواقع أن افتتان الجمهرة من متفلسفة الإسلام بأرسطو وبالمشائين وغيرهم من حكماء اليونان كان أمراً غير خفي .

وفي كلام ابن سبعين نفسه بوادر تنم عن شيء من هـذا . ألست تراه يعتبر الفارابي هو الفيلسوف لاغيره لأنه أفهمُ فلاسفة الإسلام ، وأذكرهم للعلوم القديمة ، وهو يريد علوم الفلسفة المترجمة عن يونان ؟! ثم ألست تراه يلمز ابن سينا لمخالفته للحكيم — أي أرسطو — ويعود فيرى في ذلك موضعاً للشكر لأن فيه تبييناً لآراء المعلم الأول ؟!

الخطأ والتحريف في تعريب الكتب الفلسفية

ولم يغفل المؤلفون الإسـلاميون التنبيه إلى ما وقع من الخطأ والتحريف في ترجمة الـكتب الفلسفية ونقلها إلى العربية .

قال أبو حيان التوحيدي المتوفى سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩م) في « المقابسات » :

« ... على أن الترجمة من لغة يونان إلى العبرانية ومن العبرانية إلى السريانية ، ومن السريانية إلى العربية ، قد أخلت بخواص المعاني في أبدان الحقائق إخلالاً لايخفى على أحد . ولو كانت معاني يونان تهجس في أنفس العرب مع بيانها الرائع ، وتصرفها الواسع ، وافتنانها المعجز ، وسعتها المشهورة ، لـكانت الحـكمة تصل إلينـا صافية بلا شوب ، وكاملة بلا نقص . ولو كنا نفقه عن الأوائل أغراضهم بلغتهم ، كان ذلك أيضاً ناقعاً للغليل ، وناهجاً للسبيل ، ومُبْـلِغاً إلى الحد المطلوب »[1] .

ويقول الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ (١١١١م) في كتابه « تهافت الفلاسفة » :

« ثم المترجمون لـكلام أرسطاليس لم ينفك كلامهم عن تحريف وتبديل محوج

(١) ص ٢٥٨ طبعة السندوبي .

إلى تفسير وتأويل ، حتى أثار ذلك أيضاً نزاعاً بينهم . وأقومهم بالنقل والتحقيق من المتفلسفة فى الإسلام الفارابى أبو نصر وابن سينا ، فنقتصر على إبطال ما اختاروه ورأوه الصحيح من مذهب رؤسائهم فى الضلال ، فإن ما هجروه واستنكفوا [ه] من المتابعة فيه لا يتمارى فى اختلاله ، ولا يفتقر إلى نظر طويل فى إبطاله »[١] .

وفى كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » :

« وكل من نقل كلامه — أرسطوطاليس — من اليونانية إلى الرومية وإلى السريانية وإلى الفارسية وإلى العربية حرّف وجزف ، وظن بنقله الإنصافَ وما أنصف . وأقرب الجماعة حالاً فى تفهيم مقاصده فى كلامه الفارابى أبو نصر وابن سينا ، فإنهما دققا وحققا فحملا علمه على الوجه المقصود ، وأعذبا منه لوارده منهله المورود ، ووافقاه على شيء من أصوله ، فكفّروا بكفره ، وجُعل قدرُهما بين أهل الشهادة لقدره[٢] » .

رأى ابن سينا :

وقد بين ابن سينا فى مقدمة كتابه « منطق المشرقيين » تحكم أرسطو والمشائين فى عقول المتفلسفة الإسلامية ، وكشف عن فلسفته هو وموقفها فقال :

— « وبعد ، فقد نزعت الهمة بنا إلى أن نجمع كلاماً فيما اختلف أهل البحث فيه ، لا نلتفت فيه لفت عصبية أو هوى أو عادة أو إلف ، ولا نبالى مفارقة تظهر منا لما ألِفه متعلمو كتب اليونانيين إلفاً عن غفلة وقلة فهم ، ولما سُمع منا فى كتب ألفناها للعاميين من المتفلسفة ، المشغوفين بالمشائين ، الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم ، ولم يُنِل رحمته سواهم ، مع اعتراف منا بفضل أفضل سلفهم (يريد به أرسطو) فى تنبهه لما نام عنه ذووه وأستاذوه ، وفى تمييزه أقسام العلوم بعضها عن بعض ، وفى ترتيبه العلوم خيراً مما رتبوه ، وفى إدراكه الحق فى كثير من الأشياء ، وفى تفطنه لأصول صحيحة سَرِية فى أكثر العلوم ، وفى إطلاعه الناس على ما بيّنها فيه السلف وأهل

---

(١) ص ٩ . طبع المطبعة الكاثوليكية (٢) ص ٣٩ .

بلاده ، وهذا أقصى ما يقدر عليه إنسان يكون أول من مدّ يديه إلى تمييز مخلوط وتهذيب مُفْسَد . ويحق على من بعده أن يلموا شعثه ، ويرموا ثلماً يجدونه فيما بناه ، ويفرّعوا أصولاً أعطاها . فما قَدَر مَنْ بعده على أن يُفرغ نفسه من عهدة ما ورثه منه ، فذهب عمره فى تفهم ما أحسن فيه ، والتعصب لبعض ما فرط من تقصيره ، فهو مشغول عمره بما سلف ، ليس له مهلة يراجع فيها عقله ولو وجدها ما استحل أن يضع ما قاله الأولون موضع المفتقر إلى مزيد عليه ، أو إصلاح له ، أو تنقيح إياه . وأما نحن فسهل علينا التفهم لما قالوه أول ما اشتغلنا به ، ولا يبعد أن يكون قد وقع إلينا من غير جهة اليونانيين علوم . وكان الزمان الذى اشتغلنا فيه بذلك ريعان الحداثة ، ووجدنا من توفيق الله ما قَصُر علينا بسببه مدة التفطن لما أورثوه ، ثم قابلنا جميع ذلك بالنمط من العلم الذى يسميه اليونانيون «المنطق» — ولا يبعد أن يكون له عند المشرقيين اسم غيره — حرفاً حرفاً ، فوقفنا على ما تقابل وعلى ماعصى ، وطلبنا لكل شىء وجهةً ، فحق ما حقّ وزاف ما زاف ، ولما كان المشتغلون بالعلم شديدى الاعتزاء إلى المشائين من اليونانيين ، كرهنا شق العصا ومخالفة الجمهور ، فانحزنا إليهم ، وتعصبنا للمشائين ، إذ كانوا أَوْلى فرقهم بالتعصب لهم ، وأكملنا ما أرادوه وقصّروا فيه ولم يبلغوا أَرَبَهم منه ، وأغضينا عما تخبطوا فيه وجعلنا له وجهاً ومخرجاً ، ونحن بدخلته شاعرون ، وعلى ظله واقفون ؛ فإن جاهرنا بمخالفتهم فعن الشىء الذى لم يمكن الصبر عليه ، وأما الكثير فقد غطيناه بأغطية التغافل »[1] .

وما يكون لنا أن نلتمس وراء ابن سينا مرجعاً للحكم فى الفلسفة الإسلامية . وجماع حُكْمِه ، أن الفلسفة الإسلامية كانت فى غالب أمرها قائمة على العصبية لأرسطو والمشائين . لكن فلاسفة الإسلام على الحقيقة ، من أمثال ابن سينا ، كانوا يعرفون لأرسطو فضله من غير غفلة عن قصوره أحياناً وخطئه ، وكانت تقع لهم علوم من غير أرسطو ، بل من غير علوم يونان ، وكانت وجهتهم أن يشيدوا هيكلاً فلسفياً يقوم على قواعد مما محصه النقد من مقالات أرسطو والمشائين ، وترفع أركانه بما عملته

(١) ص ٢ ، ٣ .

أيديهم وما كسبوه من غير اليونانيين .

ومتى درست آثار الفلاسفة الإسلاميين حق دراستها — وذلك يحتاج إلى كد الذهن وطول الصبر وحسن الاستعداد وتحصيل الآلة المعينة على تفهم تلك الأساليب — ومتى نشر الباحثين ما لم ينشر من آثار القوم ، وهو كثير ، فسنعرف عن يقين نصيب الفلسفة الإسلامية من التراث الفلسفى فى العالم .

فلسفة وحكمة

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن فلاسفة الإسلام استعملوا ، إلى جانب كلمة « فلسفة » اليونانية وما اشتق منها ، كلمة « حكمة » العربية وما أخذ منها ، فقالوا : حكمة ، وحكيم ، وعلوم حِكْمية .

ويظهر أن هذا الاستعمال بعيد العهد يتصل بأول نقل للعلوم القديمة فى الإسلام على ما جاء فى كتاب « الفهرست » ، فقد ورد فيه :

« كان خالد بن يزيد بن معاوية (المتوفى سنة ٨٥هـ = ٧٠٤ م) يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلاً فى نفسه ، وله همة ومحبة للعلوم . خطر بباله الصنعة ، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى . وهذا أول نقل كان فى الإسلام »[1] .

وقال صاحب الفهرست فى موضع آخر :

« قال محمد بن إسحاق : الذى عنى بإخراج كتب القدماء فى الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية . وكان خطيباً شاعراً فصيحاً حازما ذا رأى . وهو أول من تُرْجِمَ له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء ، وكان جواداً ، يقال : إنه قيل له لقد جعلت أكثر شغلك فى طلب الصنعة — فقال خالد : ما أطلب بذلك إلا أن أغنى أصحابى وإخوانى ، إنى طمعت فى الخلافة فاختزلت دونى ، فلم أجد منها عوضاً إلا أن

(١) ص ٢٤٢ .

أبلغ آخر هذه الصناعة ، فلا أحوج أحداً عرفني يوما أو عرفته إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة »[١] .

وفى كتاب « فضل هاشم على عبد شمس » للجاحظ :

«وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً ، وجيّد الرأى أريباً ، كثير الأدب حكيما ، وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة ، وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة ، وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات »[٢] .

وفى كتاب البيان والتبيين للجاحظ :

« وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً ، وفصيحاً جامعاً ، وجيد الرأى كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء »[٣] .

وقد أنشئ فى عهد الرشيد وولده المأمون بيت الحكمة ، ونجد لبيت الحكمة هذا ذكراً فى كتاب الفهرست . ففى أخبار غيلان الشعوبى :

« أصله من الفرس ، وكان راوية عارفاً بالأنساب والمثالب والمناقرات ، منقطعاً إلى البرامكة ، وينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة »[٤] .

وفى أخبار سهل بن هارون :

« وكان متحققاً بخدمة المأمون وصاحب خزانة الحكمة له ، وكان حكيما فصيحاً شاعراً ، فارسى الأصل ، شعوبى المذهب ، شديد العصبية على العرب »[٥] .

ثم ذكر سعيد بن هارون الكاتب ، وأنه شريك سهل بن هارون فى بيت الحكمة ، وذكر « سلما » صاحب بيت الحكمة مع سهل بن هارون .

وفى كتاب « سرح العيون » لابن نباته المصرى[٦] فى ترجمة سهل بن هارون :

« هو سهل بن هارون بن راهبون ، ويكنى أبا عمرو ، من أهل نيسابور ، نزل

---

(١) ص ٣٥٤ . (٢) « رسائل الجاحظ » ص ٩٣ جمع السندوبى .
(٣) ج ١ ص ٢٦ طبع السندوبى . (٤) ص ١٠٥ .
(٥) ص ١٢٠ (٦) المتوفى سنة ٧٦٨ هـ (١٣٦٩ م) .

البصرة فنسب إليها ، ويقال إنه كان شعوبياً . والشعوبية فرقة تبغض العرب وتتعصب عليها للفرس . وانفرد سهل فى زمانه بالبلاغة والحكمة ، وصنف الكتب معارضاً بها كتب الأوائل حتى قيل له بزرجمهر الإسلام . وكان فى أول أمره خصيصاً بالفضل بن سهل ، ثم قدمه إلى المأمون فأعجب ببلاغته وعقله ، وجعله كاتباً على خزانة الحكمة ، وهى كتب الفلاسفة التى نقلت للمأمون من جزيرة قبرص . وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة ، أرسل إليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعةً عندهم فى بيت لا يظهر عليها أحد أبداً ، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته وذوى الرأى واستشارهم فى حمل الخزانة إلى المأمون ، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة إلا مطرانا واحداً فإنه قال :

الرأى أن تعجل بإنفاذها إليه ، فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها . فأرسلها إليه ، واغتبط بها المأمون ، وجعل سهل بن هارون خازنا لها »[1] .

وكثيراً ما نجد فى كتب مؤلفى العربية وضع الحكمة والحكيم مكان الفلسفة والفيلسوف وبالعكس ، وعبروا بحكماء الإسلام وفلاسفة الإسلام . والحكيم عندهم على إطلاقه هو أرسطو .

وقد يدل قدم العهد باستعمال كلمة « الحكمة » فى معنى الفلسفة ، وامتداد ذلك إلى أول نقل بالعربية للعلوم القديمة ، على أن أصل معنى كلمة « الحكمة » فى كلام العرب كان مُمَهِّداً لهذا الاستعمال غير بعيد منه .

---

(١) ص ١٣٠ .